

## حقيقة التوحيد في فلسفة ابن الطفيل - قصة حي بن يقظان -

### دراسة تحليلية وردود منطقيّة على موجة الإلحاد المعاصرة

*Reality of Monotheism in the Philosophy of Ibn Al-Tufail - The Story of Hayy Bin Yaqzan*

*Analytical Study and Logical Responses to The Contemporary Wave Of Atheism*

نونة صماري

كلية القيادة والإدارة- جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

[drnounasam@usim.edu.my](mailto:drnounasam@usim.edu.my)

### الملخص

اتجهت الفلسفة الإسلامية لإثبات وجود الله واحدا فردا صمدا خالقا للكون ومدبرا له بالاستدلال العقلي دون اللجوء للآيات القرآنية وذلك لدحض الإلحاد من جهة ولدفع اللبس القائم على التناقض بين العقل والشّرع كما ادعت الفلسفة المسيحية ، ويظهر هذا جليا عند الكثير من الفلاسفة المسلمين على رأسهم الفيلسوف ابن طفيل ، تهدف هذه الورق لتحليل نص حي بن يقظان باعتباره النص المتكامل لحل هذا الإشكال بصيغة متكاملة في شكل قصصي يستوعبه الكبير والصغير دون الرجوع للنصوص القرآنية ليؤكد أن العقل قادر على استيعاب فكرة الوحي من جهة وأنه يهتدي بملكته الفطرية لوجود الله سبحانه وتعالى وبذلك يشكل ردا عقليا قويا على الملحدّين المعاصرين في ثوبه الجديد ، وتستحضر الباحثة المنهج الإستقرائي والمنهج التحليلي لشرح مفردات البحث المتمثلة في ملخص حياة الفيلسوف ابن طفيل ، عرض فلسفته عموما، طرح نص حي بن يقظان مختصرا ، تحليل نص حي بن يقظان ، حقيقة التوحيد في فلسفة ابن طفيل ، وجوه الرد على الإلحاد، الخاتمة ، قائمة المراجع .

الكلمات المفتاحية: حي بن يقظان، ابن طفيل، التوحيد، نقض الإلحاد، تحليل نص فلسفي، فلسفة .

### مقدمة :

الدّراسات الخاصّة بالفلاسفة العرب تجعلنا نعوص في عالم الوجود وفطريّة وجود الله سبحانه وتعالى خالقا للكون مدبرا لجماله وحفظه حتى تقوم القيامة ،وتعتبر الحصن الحصين للمسلم المعاصر خاصة مع الهجمة الشرسة على الإسلام التي تشنّها المنظمات والهيئات والدول في وقتنا الحاضر ،لذلك كان لزاما علينا هضم منهج الفلاسفة المسلمين في تثبيت عقيدة المؤمن الموحد بغية الحفاظ على عقيدته وصد كل شكوك عنها بفطرة سببها لكن قويّة وثابتة، ولقد كان نقاش الفلاسفة المسلمين كلّه يتمحور في إثبات وجود خالق واحد فرد صمد خالق للوجود لعلنا لا نجانب الصواب حين نقول أنّ رجال الدّين اشتغلوا بالفلسفة حتّى تكون مدافعة و خادمة للدّين. يدرك هذه المسألة كلّ من درس تاريخ الفلسفة الغربيّة في العصر الوسيط.

وكذا الفلسفة في ثوبها الإسلامي ، فالفلاسفة المدرسيون سواء كانوا أفلاطونيين أو أرسطيين، لم تكن إنتاجاتهم الفلسفية مستقلة عن الدين المسيحي (بوعود، 20)

وقد بدأ القديس أوغسطين بالتفكير الفلسفي داخل الدين المسيحي، فمهد لما عرف بـ“الأفلاطونية المسيحية”. وجاء بعده فلاسفة المرحلة السكولائية الأولى، فساروا على خطى أوغسطين، ثم بعد ذلك في المرحلة الثانية من الفلسفة السكولائية نصر توما الإكويني أرسطو، فقويت الأرسطية المسيحية.

كذلك في العالم الإسلامي لم تتعد الفلسفة عن الدين أيضاً، فقد حاول فلاسفة الإسلام كالكندي وابن رشد التوفيق بين الشريعة والفلسفة، كما أكد ابن سينا أن “إدراك النفس الناطقة للحق الأول الدّ شيء”، وهذه هي غاية الفيلسوف في نظره. ورغم أن فلاسفة الإسلام استطاعوا أن يفصلوا بين الفلسفة والأهوت الاعتقادي، فإنهم مع ذلك يشتركون مع غيرهم من المتكلمين والأهوتيين في التفكير في أهم قضية دينية، ألا وهي قضية وجود الله. فهذه القضية مشتركة بين رجال الدين والفلاسفة. ومن هنا كانت فكرة هذا المقال وهي طرح وتحليل الدليل العقلي الذي طرحه الفيلسوف ابن طفيل في رحلة حي ابن يقضان حول وجود الله، لأن فكرته حول الله فكرة أساسية ستتكرر مع فلاسفة الإسلام وفلاسفة الغرب المسيحي، كذلك فإن الباحثة وجدت الكثير من الطلبة والباحثين يجهلون فلسفة حي ابن يقضان، كما يجهلون أن الأفلام الغربية التي تتحدث عن طرازان و رجل الغابة وابن الغابة و ماوكلي وما شابهها هي ترجمة لقصة حي بن يقضان في شكل كرتوني أو فلم، وجب علينا تحليل محتواها حتى يستوعب الجيل المعاصر علاقة تلك الأفلام بمصدرها الأصلي، إذ هي النسخة الأصلية لفلسفة ابن طفيل، والغريب أن معظم الأفلام لم توضح مصدرية عملها وهذا شيء من الغش والأقتباس الذي لا يجوز في العرف العالمي، هذا من جهة ومن جهة أخرى تعتبر قصة بن يقضان دليل عقلي وفطري على وجود الله مع ضرورة الإهتمام للوحي لمعرفة شرع الخالق كما يكون الحال عندما نشترى جهاز جديد لا بد ن دليل مكتوب نتعرف فيه على حقائق ذلك الجهاز خاصة حين فساده والحفاظة عليه بما يتناسب معه وفقاً للمعايير التي وضعها صانع الجهاز، وكذلك هو الحال لمن يريد أن يعرف ما تحتاجه نفسه لا يكتفي بالتوحيد فقط وإنما يحتاج لدليل من الخالق يرشده للتعرف على نفسه ومتطلبات حياته ومآله، وهذا طبعاً لا يكون إلا من الخالق العارف العليم الذي يدرك معاني الخلق وهدفه.

لهذا كله وجب علينا التعريف بالفيلسوف ابن الطفيل ثم التعرف بالتفصيل على محتوى قصة ابن يقضان ثم العروج إلى تحليلها، ولا ننسى في ذلك التعريف بالاحاد الجديد والرد عليه تبعاً لما توصل إليه ابن طفيل.

### التعريف بالفيلسوف ابن طفيل

اسمه: أبو بكر، محمد بن عبد الملك بن طفيل. ولد في غرناطة، اشتهر بالطب، والرياضيات، والفلسفة، والشعر.

**حياته:** قضى أكثر أيام حياته يدرس ويطب؛ كان طبيباً لأبي يعقوب يوسف المنصور، جمع له في بلاطه مشاهير العلماء، منهم: ابن رشد الذي قدمه ليكون طبيباً لأبي يعقوب يوسف المنصور، وأوكل إليه شرح كتب أرسطو. وبعد وفاة أبي يعقوب يوسف المنصور بقي ابن طفيل يتمتع بمنزلته ومكانته في بلاط الموحديين ولم يعيش بعد ذلك إلا عاماً واحداً، ثم توفي في مراكش عام 581هـ (عبد الحليم، 2008)

**شخصيته:** مال ابن طفيل إلى مخالطة الناس في أول حياته، وتولى أعمال الدولة في القضاء والوزارة. كان من مشاهير أهل العلم والأدب، كان ديباً تقياً، وكان علمه واسعاً، وخاصة من الناحية الطبيعية (علم الحياة).

اطّلع على كثير مما خلفه اليونان، والعرب، والمسلمون من العلوم والآثار الفلسفية اطلاع بصير ناقد، من أجل ذلك كان قديراً على الموازنة بين الآراء والمفاضلة بينها. أعجب ابن طفيل بابن سينا وأخذ عنه الحكمة المشرقية وكان معجباً أيضاً بابن باجه.

حاول ابن طفيل أن يوجد نظاماً فلسفياً يقصه خطوة خطوة، وبين كيف أن الإنسان يتدرج بالتأمل والفكر في المعرفة من الإحاطة بما حوله من عالم المادة حتى يستطيع أن يتصل من طريق العقل بالله تعالى، ولكنه عجز عن الاتصال بالله تعالى عن طريق العقل؛ فانقلب إلى التصوف ليعرف به الله تعالى، فانقلب صوفياً وعرف الله تعالى عن طريق القلب. (2008، محمود)

**مؤلفاته:** ذكر المؤرخون تصانيف كثيرة لابن طفيل ومؤلفات منها:

تصانيف ومؤلفات في: الفلسفة - والإلهيات - والطبيعات - ورسالة في النفس - ورسائل بينه وبين ابن رشد في الطب وغير ذلك. ولكن لم يصل من مؤلفاته سوى رسالة حي بن يقظان؛ التي ترجمت إلى لغات كثيرة، وكان هذه الرسالة خلاصة آراء ابن طفيل في الفلسفة، وإن مخطوطه "أسراراً لحكمة المشرقية" ليست إلا قسماً من رسالة حي بن يقظان، التي استخلصها من أقوال الشيخ الرئيس ابن سينا بناء على طلب أحد أصدقاء ابن طفيل؛ الذي طلب منه أن يلخص له فلسفة أهل المشرق، فلبّى ابن طفيل دعوة صديقه، وكتب رسالة حي بن يقظان بأنه من أراد الحق فعليه بطلب الحكمة والجد في الوصول إليها، وأشار إلى أن الهدف من ذلك هو السعادة التي تتحقق بالاتصال بالعقل الفعال عن طريق العقل. (2008، محمود)

وقال إن هناك طريقين لبلوغ السعادة القصوى، هما: طريق المتصوفين: التي انتصر لها الغزالي وأنكرها ابن الطفيل. وطريق النظر والتأمل: التي درج عليها الفارابي وتلامذته وأوضح بعض خطوطها ابن باجه، وزادها وضوحاً وتفضيلاً.

**سرد قصة حي ابن يقظان :**

يقول ابن الطفيل " ذكر سلفنا الصالح — رضي الله عنهم — أن جزيرة من جزائر الهند التي تحت خط الاستواء، وهي الجزيرة التي يتوَلَّد بها الإنسان من غير أم ولا ... وهي التي ذكر المسعودي أنها جزيرة الوقواق؛ لأن تلك الجزيرة أعدل بقاع الأرض هواءً، وأتمها لشروق النور الأعلى عليها ... إنه كان بإزاء تلك الجزيرة جزيرة عظيمة متسعة الأكناف كثيرة الفوائد عامرة بالناس، يملكها رجل منهم شديد الأنفة والغيرة، وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر، فعصلها ومنعها الأزواج؛ إذ لم يجد لها كفؤًا . وكان له قريب يسمَّى يقظان فتزوجها سرًّا على وجه جائز في مذهبهم المشهور في زمنهم . ثم إنَّها حملت منه ووضعت طفلًا، فلما خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرها وضعت في تابوت أحكمت زمَّه بعد أن أروته من الرضاع وخرجت به في أول الليل في جملة من خدمها وثقاتها إلى ساحل البحر وقلبها يحترق صبابه به وخوفًا عليه، ثم إنَّها ودَّعته وقالت " اللهم إنك خلقت هذا الطفل ولم يكن شيئًا مذكورًا، ورزقته في ظلمات الأحشاء وتكفَّلت به حتى تمَّ واستوى، وأنا قد سلَّمته إلى لطفك ورجوت له فضلك خوفًا من هذا الملك العشوم الجبار العنيد، فكن له ولا تُسَلِّمه يا أرحم الراحمين " ثم قذفت به في اليم . فصادف ذلك جري الماء بقوة المد فاحتمله من ليلته إلى ساحل الجزيرة الأخرى المتقدم ذكرها، وكان المد يصل في ذلك الوقت إلى موضع لا يصل إليه بعدُ علمٌ، فأدخله الماء بقوته إلى أجمة ملتفة الشجر عذبة التربة مستورة عن الرياح والمطر محجوبة عن الشمس تزاور عنها إذا طلعت وتميل إذا غربت ... فلما اشتدَّ الجوع بذلك الطفل بكى واستغاث، وعالج الحركة، فوقع صوته في أذن ظبية فُقد طلاها، خرج من كِناسه فحمله العقاب . فلما سمعت الصوت ظنته ولدها، فتتبع الصوت وهي تتخيل طلاها حتى وصلت إلى التابوت، ففحصت عنه بأظلافها وهو ينوء ويئن من داخله حتى طار عن التابوت لوح من أعلاه، فحنت الظبية وَحنت عليه ورئمت به، وألقت حلماتها وأروته لبنًا سائغًا، وما زالت تتعهدُه وتربيُه وتدفع عنه الأذى ... إن الظبية التي تكفَّلت به وافقت خصبًا ومرعىً أثينًا، فكثرت لحمها ودر لبنها، حتى قامت بغذاء ذلك الطفل أحسن قيام . وكانت معه لا تبعد عنه إلا لضرورة الرعي . وألف الطفل تلك الظبية حتى كان بحيث إذا هي أبطأت عنه اشتد بكاءه فطارت إليه . ولم يكن بتلك الجزيرة شيء من السباع العادية، فتربَّى الطفل ونما واغتنى بلبن تلك الظبية إلى أن تم له حولان، وتدرَّج في المشي وأنغر فكان يتبع تلك الظبية وكانت هي ترفق به وترحمه وتحمله إلى مواضع فيها شجر مثمر، فكانت تطعمه ما تساقط من ثمراتها الحلوة النضيجة وما كان منها صلب القشر كسرتة له بطواحنها ... فما زال الطفل مع الأطباء على تلك الحال، يحكي نغمتها بصوته حتى لا يكاد يفرِّق بينهما . وكذلك كان يحكي جميع ما يسمعه من أصوات الطير وأنواع سائر الحيوان محاكاة شديدة لقوة انفعاله لما يريد . وكان في ذلك كله ينظر إلى جميع الحيوانات فيراها كاسية بالأوبار والأشعار وأنواع الريش، وكان يرى ما لها من العَدُو وقوة البطش وما لها من الأسلحة المعدة لمدافعة من ينازعها مثل القرون والأنياب والحوافر والصياصي والمخالب . ثم يرجع إلى نفسه فيرى ما به من العري وعدم السلاح وضعف العدو وقلة البطش عندما كانت تنازعه الوحوش أكل الثمرات وتستبد بها دونه وتغلبه عليها فلا يستطيع ذلك المدافعة عن نفسه ولا الفرار عن شيء منها ... فلما طال همه في ذلك وهو قد قارب سبعة أعوام ويئس من أن يكمل له ما قد أضرَّ به نقصه، اتخذ من أوراق الشجر العريضة شيئًا جعل بعضه خلفه وبعضه قدامه ... واتخذ من أغصان الشجر عَصِيًّا

وسوى أطرافها وعدل متنها... وبقي بحكم هذه الحالة مدة، ثم إنه تأمل جميع الأجسام حياها وجامدها... ولاح له مثل ذلك في جميع الصور فتبين له أن الأفعال الصادرة عنها ليست في الحقيقة لها وإنما هي لفاعل يفعل بها الأفعال المنسوبة إليها.. " (2008. ابن طفيل).

**تحليل النص القصصي:** بعد التعريف بالفيلسوف نقوم بتحليل النص كالتالي:

يعالج ابن طفيل في هذه الرسالة معضلة شغلت بال الفلاسفة المسلمين، ألا وهي: صلة الإنسان بالعقل الفعّال، وباللّه تعالى. أمّا طريقة معالجته لهذه القضية فكانت: بأن ابن طفيل وصف لنا شخصاً واحداً، لم يعرف بيئة اجتماعية، ولم يعيش فيها، ولم يتأثر بعاداتها، ثم بيّن كيف أن هذا الواحد قد توصل من تلقاء نفسه وبغير معين سوى عقله إلى أن يعرف جميع ما حوله، من أدنى دركات الموجودات المادية الحسيّة، إلى أعلى درجات الوجود العقلي. والقصة الحقيقية لا تمثل حياة فرد، ولكنها تمثل تطوّر الإنسانية في أدوارها المختلفة.

**سبب تأليف رسالة حي بن يقظان:** إن أحد أصدقاء ابن الطفيل سأله عن أسرار الحكمة المشرقية التي ذكرها ابن سينا في الكشف عن حقائق الوجود، وما يراه أصحاب المشاهدة والولاية والحضور والأذواق في طور ولايتهم.

ثم ضرب ابن طفيل مثل الذي يدرك ما بعد الطبيعة بالفكر والعقل، ومثل الذي يدرك ذلك بالكشف والمشاهدة، فيقول: "تخيّل حال من خلق مكفوف البصر إلا أنه جيد الفطرة، قوي الحدس. نشأ في بلدة من البلدان، وما زال يتعرف على الأشخاص فيها، وعلى أنواع الحيوانات، والجمادات، وعلى شكل المدينة، ومسالكها وديارها وأسواقها بما لديه من ضرور الإدراكات الأخرى حتى صار يمشي في تلك المدينة بغير وكيل ولا مساعد، وكان يعرف الألوان وحده بشرح أسمائها. ثم إنه بعد أن حصل على هذه الرتبة، فتح بصره، فمشى في كل أنحاء المدينة فلم يجد أمراً على خلاف ما يعرفه ويعتقده، غير أنه حدث له أمران عظيمان: أحدهما تابع للآخر، وهما: زيادة الوضوح ثم اللذة الكبيرة والعظيمة".

فحال الضررين المتأملين المفكرين الذين لم يصلوا إلى طور الولاية هي حال الأعمى الأول، وحال النظار المشاهدين الذين وصلا إلى طور الولاية هي حال الأعمى الثاني. (عنان، 1964)

**قصة حي بن يقظان:** تخيّل ابن الطفيل إنساناً تولد من الأرض من غير أب ولا أم، في جزيرة من جزر الهند، عند خط الاستواء؛ لأنها أعدل بقاع الأرض، خلق حي بن يقظان من طينة متخمرة كبيرة جداً، وامتزجت فيها العناصر الأربعة (الحرارة - البرودة - الرطوبة - واليبوسة) حتى أصبحت مستعدة لقبول الحياة، فتمخضت عن جسم؛ حينئذ تلعلقت فيها الروح التي هي من أمر الله تعالى، ودبت فيها الحياة، وأصبحت تلك الطينة بشراً سوياً.

منشأ حي بن يقظان وأدوار حياته: كان حي بن يقظان محتاجاً إلى العناية والرعاية وكان في الجزيرة ظبية فقدت طلاها طفلها، فحضنت حي بن يقظان ورعته.

لقد اهتم ابن طفيل بالحياة العقلية لحي بن يقظان؛ لذلك جعل حياته سبعة أدوار، كل دور سبع سنوات، فيتم التطور العقلي لحي بن يقظان في خمسين عاماً.

**الدور الأول:** اهتمت الظبية بحي بن يقظان؛ حيث تعلّم في هذا الدور محاكاة الأصوات، وستر العورة بريش الحيوان وبورق الشجر، وتعلّم استعمال العصا في الدفاع عن نفسه وألفَ عدداً من الحيوانات.

**الدور الثاني، والثالث:** ماتت الظبية في مطلع الدور الثاني، فحاول حي بن يقظان معرفة سبب موتها فشق صدرها واستخرج القلب؛ فعلم أن الروح تكون في القلب فإذا فارقت مات الجسد. وتعلّم حي بن يقظان استخدام النار، وحفظها واستعمالها في الإنارة والدفع والطبخ وهروب الحيوانات الضارية منها. وتعلّم أن الحياة موجودة في كل أجناس الحيوان، وأنها موجودة في القلب، وهي التي تجعل العين تبصر، والأذن تسمع ... إلخ.

**الدور الرابع:** أدرك حي بن يقظان العالم الطبيعي الذي حوله، وعرف خصائصه وأن الأجسام الموجودة في العالم لها ثقل وحركة وأن لكل جسم صورة ومادة وأنّ الروح لجميع المخلوقات الحيّة شيء واحد فعلم أنّ التعدد من ناحية الأعراس، والوحدة من ناحية الجوهر.

**الدور الخامس:** عرف حي بن يقظان في هذا الدور: أن السماء، والكواكب هي أجسام، وأن السماء التي هي مجموع العالم أي: الكون ومافيه متناهية؛ لأنها جسم وأن العالم كروي وأن حركة الأجرام السماوية لا يمكن أن تكون منبعثة من نفسها، فلا بد لها من محرك ليس في جسم. واستنتج: أن العالم حادث وكل حادث لا بدله من محدث.

فمحدث العالم هو الله؛ المنزّه عن صفات الأجسام، فهو ليس بجسم ولا متصللاً بجسم ولا منفصلاً عنه ولا خارجاً عنه. وقد تحقّق عند حي بن يقظان أن العالم في روعته وجماله ونظامه لا يصدر إلا عن فاعل مختار، في غاية الكمال وفوق الكمال.

**الدور السادس، والسابع:** في هذا الدور المزدوج: بلغ حي بن يقظان أشده في الأربعين من عمره، قصر جهده فيه على معرفة الله فعجز عن معرفته بالحواس؛ لأن حواسه لا تستطيع إدراكه، ولأن الله تعالى ليس بجسم، وأن حواسه لا تدرك إلا الموجودات المادية، وكل ما يتعلق بالمادة كالأسباب والعلل والصورة والمادة.

لقد أدرك حي بن يقظان أن نفسه المتصلة بجسده لا يمكن أن تدرك الله؛ لأن الجسد مادة، ولكن إذا فارقت النفس الجسد المادة حينئذ يمكنها أن تدرك الله تعالى. فالتّفسّس جوهر، والجسد مادة؛ فعليه أن يتخلص من متطلبات الجسد المادية بالرياضة، وإعطاء الجسد ما هو ضروري لحفظه ووجوده، وأن يديم التفكير والتأمل في الموجود الأول (الله)، حتى ينسى كل ما حوله، ثم ينسى نفسه، ويغيب عن فكره كل ما في العالم، ولم يبق إلا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود. (محمود، 1960)

فكلما استغرق في حالته هذه شاهد ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ورأى حي بن يقظان أن الرجل الكامل عليه أن يتعد عن كل عمل يعوقه في مسيره نحو الله تعالى للتشبه والاتصال به، وأن يتخلى عن كل ما هو من شأن الحس والتخيّل؛ ليفسح المجال كله للفكر دون سواه.

ولما بلغ حي بن يقظان قمة التأمل، راح يتأمل انعكاس نور الله تعالى في الكون، كنور الشمس؛ الذي يقع على الأجسام فتراه ينعكس فيها ويظهر عليها. (عاطف العراقي، 1979)

**التوفيق بين الدّين والفلسفة من خلال رسالة حي بن يقظان:** أراد ابن طفيل أن يعرض لقضية التوفيق بين الدّين والفلسفة، وبين أن ما وصل إليه حي بن يقظان بالتأمل والنّظر العقلي لا يخالف تعاليم الدّين المنزل، فتخيّل أن بقرب جزيرة حي بن يقظان جزيرة أخرى، بلغتها تعاليم الإسلام، وفيها رجالان من أهل الخير والفضل، هما: أبسال، وسلامان وكانا فقيهين بكل ما ورد في الشريعة الإسلامية، وقد أراد أبسال أن يلجأ إلى العزلة لزيادة التأمل والتفكير والعبادة، فرحل إلى جزيرة حي بن يقظان الخالية من الناس وضوضاء الحياة الاجتماعية، وبعد مدة التقى أبسال مع حي بن يقظان وتألّفا معاً، ووصف كل منهما حاله للآخر، وكيف ترقى بالمعرفة حتى انتهى للوصول إلى الله تعالى ومعرفته، ولما سمع أبسال حديث حي بن يقظان تطابق عنده المعقول والمنقول، فوصف لصديقه حي بن يقظان جميع ما ورد في الشريعة من الأمر الإلهي، ففهم حي بن يقظان ذلك كله ولم ير ما ورد في الشريعة شيئاً على خلاف ما شاهده في مقامه وتأمله الفكري، وخرج حي بن يقظان مع صديقه أبسال إلى جزيرته ليساعده على هداية الناس، وبيّث آراءه وأفكاره فيهم، فلما اجتمع حي بن يقظان بهم، وعرض عليهم أفكاره انقبضوا وأعرضوا عنه. فعلم حي بن يقظان عند ذلك أن لغة الناس عامة الجمهور غير لغة الحكماء، وأن العامة من الناس لا ينفعها إلا أشكال العبادات: صلاة - صوم - زكاة - حج.. التي جاء بها الأنبياء، وأنه لا يجهز لهم غير ذلك؛ إذ لا يستطيع أولئك العامة من الناس إدراك الحقيقة، ولا التفكير لأنفسهم، وعلم أن الحكمة والهداية والتوفيق يكون فيما نطق به الرسل، ووردت به الشريعة. حينئذ عاد حي بن يقظان من أبسال إلى جزيرته، وقضيا ما بقي من حياتهما في التأمل والتفكير والعبادة، وظلا كلاهما على ذلك حتى أتاهما اليقين (الموت).

وهكذا عرف حي بن يقظان أن الدّين خاطب الناس بأسلوب يقترب من أفهامهم، وأن الأوصاف التي قدمها القرآن الكريم للحياة الأخرى هي رموز ذات معنى عميق. (مقتبس بتصرف) (نونة، 2019)

تلك هي خلاصة رسالة حي بن يقظان وهي - كما لا يخفى - خلاصة الفلسفة الإسلامية في المشرق؛ فقد أراد ابن طفيل أن يذهب المذهب العقلي والكشفي معاً، وأن يسوق آراء ابن باجه إلى هدفها. فأوضح بأسلوبه القصصي كيف يستطيع الإنسان بقواه العقلية أن يرتقي من المحسوس إلى المعقول، ومن المعقول إلى الاتصال بالعالم الروحاني.

وقد أوضح موقفه من الفلسفة والدين، وعالج القضية في خطوطها الكبرى، (1961، شيخ الأرض) وترك لابن رشد أن يفصلها تفصيلاً كاملاً. إن قضية التوفيق بين الفلسفة والدين، هي الهدف الرئيسي لرسالة ابن طفيل، وإن الآراء فيها مثله بأشخاص حي بن يقظان وأبسال وسلامان؛ الذي يمثلون الفلسفة والإيمان النير والإيمان الآلي (العفوي) الفطري.

إن قضية التوفيق بين الفلسفة والدين، كانت مشكلة العصر الذي كان فيه ابن طفيل وقد نشب صراع بين أرباب الفلسفة والدين، وراح الفقهاء يطاردون الحكماء والفلاسفة ويحرضون الناس عليهم، فكان همّ الفلاسفة الأكبر أن يبينوا للناس أن الأخذ بالحكمة حكمة، وأن العقل نور من عند الله تعالى، وهبة للإنسان، وأن الشريعة هي وحي من الله تعالى أيضاً، والله تعالى هو المصدر الواحد لهما، (للعقل، والوحي)، ولا يمكن أن يكون الله صديقاً واحداً لنورين متناقضين، ومن ثم من المستحيل أن يختلف العقل والدين، وإن كان هناك خلاف فهو خلاص ظاهري، فالفلسفة هي خادمة للدين تمشي في ركابه.

### تشمل فلسفة ابن طفيل

1- الفلسفة الطبيعية.

2- فلسفة ما بعد الطبيعة الله - وجوده - صفاته.

3- النفس، طبيعتها - قواها - خلودها.

4- العالم حدوث العالم - وقدمه.

5- نظرية الاتصال (نظرية المعرفة).

6- الرياضيات

استطاع تطويع هذه العلوم لاثبات الوجدانية لله تعالى وذلك من خلال قصة ابن يقظان ورحلته الغير مقصودة بين الحيوانات والطبيعة وما تحويه من مغازب وتأمّلات فطرية تحتاج في نهاية المطاف إلى كتاب من الخالق يوضّح له حيثيات لا تدركها القوة العقلية والروحية والنفسية .

### تعريف الإلحاد

#### لغة

هو الميل عن القصد، والعدول عن الشيء، ومصدره لحد، واللحد هو الشق في جانب القبر فالإلحاد لغة يراد به كل من مال عن القصد والحق.

وأطلقت العرب صفة الإلحاد على أيّ أحد أظهر بدعةً وإن كان مؤمناً بالله وبنبيه.

وإطلاقها على الكفار والزنادقة أشهر وإن كانوا على أديان أو مذاهب أخرى.

## الإلحاد اصطلاحاً

هو مذهب فكري ينفي وجود خالق الكون، واشتقت التسمية من اللغة الإغريقية (أثيوس (atheos وتعني بدون إله. ومن هنا ظهرت التفرقة بين مصطلح الإلحاد وبين الربوبي واللاأدري.

وبناءً على تلك الفروق ظهرت العديد من المصطلحات - في الفكر الإلحادي - الكاشفة لعقيدة صاحبها بشكل أكثر دقة، مثل:

الملحد: هو المنكر للدين ولوجود الإله.

اللاإلهي: وهو الاسم الذي يفضله كثير من الملاحدة مع أن لفظ اللاإلهي يعني من لا يؤمن بدين وليس بالضرورة أن يكون منكراً للإله.

ضد الدين: Antitheist هو الملحد الذي يتخذ موقفاً عدائياً من الإله والدين والمتدينين.

الربوبي: Diest هو الذي يؤمن بأن الإله قد خلق الكون، ولكنه ينكر أن يكون قد تواصل مع البشر عن طريق الديانات. اللاأدري: Agnostic هو الذي يؤمن بأن قضايا الألوهية والغيب لا يمكن إثباتها وإقامة الحجة عليها كما لا يمكن نفيها، باعتبارها فوق قدرة العقل على الإدراك.

المتشكك: Sceptic هو الذي يرى أن براهين الألوهية لا تكفي لإقناعه، وفي نفس الوقت لا يمكن تجاهلها.

العلماني: Secularist العلمانية هي دعوة إلى إقامة الحياة على العلم المادي والعقل ومراعاة المصلحة بعيداً عن الدين، وهو اصطلاح سياسي لا علاقة له بعقيدة الفرد الدينية ولا ك أن كثيراً من العلمانيين ملاحدة أو لا دينيين خصوصاً في بلاد الغرب. (2018 ، خربوع )

## أشكال الإلحاد:

تختلف أشكال الإلحاد وألوانه بحسب الدراسات والبحوث التي تناولته، وهنا سأنقل بعض ما اطلعت عليه وأسردها دون ترتيب، والملاحظ أن بعضها يشمل البعض وطبيعي أن تتداخل كثير منها لاشتراكها في دوافعها وبواعث ظهورها:

1. الإلحاد الفلسفي: وهو منتشر بين الطلبة في كليات الآداب والعلوم الإنسانية.
2. الإلحاد العلمي: وهو الإلحاد الممجّد للعلم والمركز على نظرية دارون.
3. الفكر الإلحادي القوي: وأصحابه يُعرفون بالملاحدة الأصوليون. وهم الذين يُنكرون وجود الإله ويسوقون الأدلة على ذلك ويروجون لفكرهم ويهاجمون الدين والمتدينين ويسبونهم.
4. الفكر الإلحادي الضعيف: وأصحابه لم يجدوا أدلة كافية تقنعهم بوجود الإله، لكنهم لا ينشرون أفكارهم، ولا يعيرون الأمر اهتماماً كفيلاً.
5. الإلحاد المطلق: وهو إنكار الألوهية وما يتفرّع عنها من الرسل والرسالات.
6. الإلحاد الجزئي: وهو الاعتراف بوجود إله خالق مع إنكار تصرفه وسيطرته على البشر.
7. اللاقدرية والعدمية: وهي اليأس من عدالة الأرض والسماء والشعور باللاجدوى.

8. الإلحاد العابر: في مرحلة من مراحل العمر وخاصة المراهقة و الشباب.
9. الإلحاد الباحث عن اليقين.
10. الإلحاد الانتقامي: الموجه ضد رمز أو رموز أو ممارسات دينية مكروهة أو مرفوضة.
11. الإلحاد التمردى: من خلال التمرد على السلطة أيًا كان نوعها.
12. الشيوعيون: الذين يريدون تحويل المجتمعات إلى مستعمرات كادحة ولن يمكن تحقيق ذلك في وجود المعتقدات الدينية ولذا يحاربون الدين للقضاء عليه ولو بالقوة.
13. الهاربين من الدين: وجدوا في الإلحاد هروباً من قيود الدين أو إثباتاً لذواتهم أو تحقيقاً لمصالح أخرى.
14. الشكاكين: هم فئة شكاكين في كل شيء وكثيرون منهم يلتزمون الصمت، ولا يطرحون شكهم للنقاش.

تاريخ الإلحاد القديم: الإلحاد من حيث هو إنكار لوجود الإله وكل ما يتعلّق بذلك من خلق وإيجاد رسالات وحساب وجزاء لا يعرف له وجود تاريخياً.

وإن وجدت بعض الإشارات التاريخية فهي لحالات معدودة ونادرة ويعجز التاريخ المكتوب والمروي عن تزويدنا بأول ملحد. أول الملاحدة الذين عُرفوا وسُجلت عنهم آراء أو كتابات إلحادية كانوا في اليونان وهم دياغوراس من ميلوس 415-465 ميلادية كريستياس 403-460 ميلادية ديوجين الكلبي 412 ميلادية. ثيودور الملحد 320 ميلادية.

هؤلاء هم من نُقلت عنهم عبارات أو تواليف تنفي صراحة وجود الخالق. وغير هؤلاء ممن يذكرهم الملحدون المعاصرون ويتكثرون بهم فإنهم لا تنطبق عليهم صفات الملاحدة، وأكثرهم يمكن أن تطلق عليهم وصف لادينين لكنهم يقرّون بوجود خالق للكون.

### تاريخ الإلحاد الحديث

حتى خمسمائة عام مضت كان المصدر الأساسي للمعرفة في أوروبا هو الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد، كما تبني رجال الكنيسة الكاثوليكية آراء أرسطو وبطليموس العلمية حول الكون وكوكب الأرض والفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعي وألحقوها بمفاهيمهم المقدسة، حتى غدا أرسطو مقدّساً عندهم وكأنه من رجال الكنيسة الأوائل.

وبعد ظهور آراء كوبرنيكوس بحساباته الرياضية لدوران الأفلاك وتأكيده جاليليو ذلك بتليسكوبه، وما تبع ذلك عند اكتشاف الميكرو سكوب الذي تم من خلاله رؤية الجراثيم التي تسبب الأمراض وما نتج عن ذلك من إنعدام أهمية القسيسين في علاجها بصلواتهم، حيث يغني عن ذلك الدواء مما قلل من أهميتهم وأضعف الكنيسة.

وظهرت بعد ذلك نتائج عملية مهمة لمكتشفات نيوتن الذي وضع قوانين الحركة الثلاثة وقانون الجاذبية وما تلا ذلك من إضافات لابلاس لها.

نتج عن كل ذلك انهدام لجميع القواعد العلمية التي آمنت بها الكنيسة وأجبرت الناس على الإيمان بها وتصديقها وأضفت عليها صفة القداسة طوال قرون.

وتسببت تلك الاكتشافات في صراع بين العلم ورجاله من جهة وبين الكنيسة ورجالها من جهة أخرى،، (2018 خربوع) وكان للثورة العلمية في أوروبا أثر مدمر للكنيسة إذ أعقبتها مباشرة نزعة شكية إلهادية كبرى، مازالت تتضرم حتى اليوم. وكانت ردود أفعال رجال الكنيسة واستبدادهم وسلوكهم الاضطهادي ضد مخالفينهم سبباً في حدوث ردة فعل نفسية شديدة لدى العلماء مما انعكس على سلوكهم وعلى سلوك عامة الناس أيضاً.

وألقت هذه الأزمة بظلالها على المفكرين والعلماء حتى قادت الناس في أوروبا في القرن السابع عشر إلى ما عرف بحركة التنوير (2015 ، العجيري) وزاد الشقاق حتى غرق الأوروبيون في القرن الثامن عشر إلى مستنقع الشك الكامل في كل موروثهم الاعتقادي والعلمي الذي كانت تشرف عليه الكنيسة وتجبر الناس على الامتثال الكامل له.

وتوالى هذا الصراع على أشده حتى انحسر دور الكنيسة وتراجعت إلى الزوايا البعيدة وخاصة بعد الثورة الفرنسية. ثم بدخول القرن العشرين كان الأوروبيون مستعدين لأمثال مقولة "الدين أفيون الشعوب" التي كان لها وللعقيدة الماركسية أثر كبير في رسم مسار التاريخ الأوروبي الحديث.

وجاء سؤال نيتشه: هل مات الإله؟ ليحتل مركز الصدارة في الفكر الأوروبي، وليتحول من مجرد رأي لفيلسوف حتى يصبح عنواناً يتكرر في الصحف اليومية بشكل مستمر. وكان ذلك متوافقاً مع النفسية المتشككة والرافضة لكل ما ورثته عن الكنيسة حتى أصبحت وكأنها ستقبل بأية فكرة لمجرد معارضتها لأفكار ومعتقدات الكنيسة التي ذاق الأوروبيون منها ومن استبدادها الأمرين طوال القرون الماضية.

الفرق بين الإلحاد الغربي والإلحاد الإسلامي يفرق بعض الباحثين بين الإلحاد في نمطه الغربي وبين نمطه الإسلامي، حيث أن الملاحظة في النمط الغربي هم من المنكرين لوجود الخالق سبحانه وتعالى.

بينما الملاحظة في السياق العربي والإسلامي بشكل عام يسجل التاريخ أن كثيرا ممن أتهم بالإلحاد ليس منكرًا لوجود الخالق سبحانه وتعالى، لكن أكثرهم لديه تحبّطات عقديّة كبرى، مثل إنكار النبوة أو القول بالاتحاد، يقول عبد الرحمن بدوي: (إذا كان الإلحاد الغربي بنزعتة الديناميكية هو ذلك الذي عبّر عنه نيتشه حين قال "لقد مات الله" وإذا كان الإلحاد اليوناني هو الذي يقول: "إن الآلهة المقيمين في المكان المقدس قد ماتت" فإن الإلحاد العربي هو الذي يقول: "لقد ماتت فكرة النبوة والأنبياء".

ومن هنا فإن فكرة إنكار وجود الخالق سبحانه وتعالى في نمط الإلحاد الإسلامي المعاصر هي فكرة طارئة عليه وليست قديمة كما هي في نمط الإلحاد الغربي.

### تفعيل قصة حي ابن يقضان للردّ عن الملاحظة المعاصرين :

حي ابن يقضان يركّز على ضرورة البحث واستعمال العقل كما رأينا لكن استعماله للعقل كان مركزا في البحث عن الله سبحانه وتعالى فالاختلاف الظاهر بين تركيبية الإنسان والحيوان والطبيعة توحى للإنسان أنّ هناك خالق يتحكم في الكون وفقا لقانون متعالى لا يدركه العقل ، ولا يستطيع العقل الوصول إلى قمة الحفاظ على كيانه إلا بالاستعانة لدليل يكون من خالق الكون حتى ينزع الشكوك في مصدرية الإنجيل والتوراة والقرآن في نسخهم الأصلية طبعاً . والدليل على وجود الله في قصة حي ابن يقضان رغم أنّها فلسفية لكن يستطيع استيعابها جمهور الناس على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم ذلك أنّها تبسّط وجود الخالق بلغة سهلة كما عرضناها ، بعيدا عن التعقيد الفلسفي . كما أنّها كانت سبب لعزوف الكثيرين عن إلحادهم ومنهم الملحد سابقا "أنطوني جيرارد نيوتن فلو" (2015 ، العجيري )

و لو كان الله غير موجود فلماذا أشرس ملحد في القرن الماضي الذي جعل نصف العالم يترك الأديان ويلجأ للإلحاد، لماذا يترك الإلحاد وينقذ نفسه بنطقه الشهادتين؟ حديثي معكم عن "أنطوني جيرارد نيوتن فلو" عُرف بكونه فيلسوفا بريطانيا ليس هذا وحسب بل واشتهر بكتاباته في فلسفة الأديان.

فقد كان طوال حياته ملحدا وألف العديد من الكتب التي تدحض فكرة الإله، (2018، جربوع ) غير أنه وفي آخر حياته ألف كتابا نسخ كل كتبه السابقة وقد تجاوزت ثلاثين كتابًا تدور حول فكرة الإلحاد، بعنوان: هنالك إله. وقد تعرض لحملة تشهير ضخمة من المواقع الإلحادية في العالم وذلك لأنه ولخمسين عامًا كان يعتبر من أهم منظري الإلحاد في العالم، تميز فلو بعلميته في الطرح واستشهاده بقوانين الطبيعة لاثبات آرائه، وقد بدأ يتخلى عن الإلحاد بعد تفحص عميق للأدلة ثم أعلن ما اعتبر صدمة قوية في وسط الفكر الإلحادي في العالم تحوله إلى الفكر الربوبي، أليس هذا دليلا على أن الله موجود وبأن الإسلام هو الدين الحق؟

يعد هذا الكتاب هو آخر كتبه عام 2007 أي قبل موته بثلاثة أعوام وكان آن ذاك قد قارب التسعين عاما البعض أتهم مساعده الكاتب (فارغاسي) المتدين بالتأثير على العجوز أنتوني فلو وصياغة أفكاره في الكتاب، البعض قال بأن أنتوني فلو كان مريضاً لدرجة يعجز فيها عن الكتابة، لكنها حجة هشة لأن ما يعنينا هو ما يوجد في الكتاب وليس كاتبه وأنتوني بنفسه نفى هذا الاتهام وأشار الى أنه مسؤول على كل ما في الكتاب، فماذا يوجد إذاً في هذا الكتاب من أدلة تثبت وجود هذا الإله الذي يفترضه أنتوني.(2016، الشّريف)

### الخاتمة :

حي بن يقظان قصة من إحدى قصص كلاسيكيات الأدب العربي القديم، ورائعة من روائعه، جمع فيها ابن الطفيل بين الفلسفة والأدب والدين والتربية، فهي قصة ذات مضامين فلسفية عميقة، تناقش ما نسميه في مصطلحنا المعاصر برؤية العالم أو النموذج المعرفي، حيث تتضمن القصة عناصر الثقل المعرفي الأساسية والمثثلة في (الإله/الإنسان/الطبيعة)، كما تتطرق إلى أبعاد العلاقة بين هذه العناصر، فهي تحكي قصة إنسان استقر به الحال وهو بعد طفل على أرضٍ لا إنسان فيها، فاتخذ من الحيوان مُرضِعاً له، والطبيعة مأوى له، فافتش الأرض والتحف السماء، ولما كبر واتشد عوده ونضح فكره، انصرف إلى التأمل في الكون، وهو الأمر الذي قاده إلى حتمية وجود خالق لهذا الكون

### قائمة المصادر والمراجع

أحمد بوعود . ( 2015 / 2016 ). محاضرات في مادة مقاربات فلسفية للدين . جامعة عبد المالك السعدي كلية الآداب و العلوم الإنسانيّة . السنة الجامعة ..

أمين عبد الهادي خربوع . ( 2018 ) . كيف تحاور ملحدًا. القاهرة: مركز دلائل

محمد بن طفيل . ( 1966 ). حي بن يقظان . القاهرة: طبعة أحمد أمين.

تيسير شيخ الأرض . ( 1961 ). ابن طفيل . بيروت : سلسلة أعلام الفكر العربي .

عبد الحليم محمود . ( 2008 ) . فلسفة ابن طفيل ورسائله . القاهرة: مكتبة الأنقلو مصريّة.

عمار الشّريف . ( 2016 ). الإلحاد مشكلة نفسية . دارفورست بوك.

عبد الله العجيري . ( 2015 ) . مليشيا الإلحاد . مصر : البصائر .

<https://basaer-online.com/download/%> مليشيا الإلحاد

محمد عبد الله عنان . ( 1964 ). دولة الإسلام في الأندلس . القاهرة : عصر المرابطين والموحدين.

محمد عاطف العراقي . ( 1979 ) . الميتافيزيقا في فلسفة ابن طفيل . القاهرة: دار المعارف .

نونة صماري . ( 2019 ). نصوص فلسفيّة دراسة في التّراث الفلسفي الإسلامي ، ماليزيا : مطبعة جامعة العلوم الإسلامية

الماليزيّة .